الفصل الثالث

أسس التربية فى الإســـــلام وركائزها

إن تربية الإنسان على الفكر الإسلامى هى بداية فى الإسلام • والفكر الإسلامى يتناول عقيدة الإنسان فى الوجود وما بعد الوجـــــود ، وطبيعة الإنسان ، وعلاقة الوجود بالإنسان ، وعلاقة الإنسان بالوجود وما بعـــد الوجود • كما يتناول مجموعة القيم التى تشكل العلاقات الاجتماعية المختلفة من علاقات اقتصادية وسياسية ، وأسرية واجتماعية بوجه عام •

والتربية فى الإسلام تعتمد على بناء الإنسان على هذا الفكر الإسلامى بناء عقلياً ، وروحياً ، وجسمياً ، واجتماعياً ، ونفسياً • وتعتبر أن بناء الإنسان على هذا النحو هو أساس بناء جميع النظم الاجتماعية : سياسية ، واقتصادية ، وأسرية ، وقانونية ، وعسكرية ، واجتماعية عامة ، وترفيهية ، وتربوية • وذلك استناداً إلى البديهية التى تؤكد أن القوة البشرية هى العنصر الرئيسى فى هذه النظم ، وعليها تبنى جميع عناصر النظم الاجتماعية من إدارة وتنظيم وابتداع للجانب التكنولوجى فى كل نظام ، وتسييره وفقاً لمجموعة من القيم والقواعد التى تحكم سير العمل فى هذه النظم ، لكى تحقق أهدافها وأغراضها العامة والخاصة •

وفى حالة المجتمعات الإسلامية التى ترسبت فيها قيم وعادات واتجاهات ومفاهيم غير إسلامية ـــ فإن تغيير الإنسان وفقاً للمنهج الإسلامى فى الفكر ، وفى العقيدة ، وفى السلوك الفردى ، والاجتماعى يصبح المنطلق الأساسى للتربية الإسلامية ، ويتبع تغيير الإنسان ، بل يوازيه تغيير المجتمع بما يشمله من نظم وعناصر • وفى هذا يقول القرآن الكريم « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »[1] •

---

(١) سورة الرعد ـــ آية (١١) .

والإسلام إذ ينشد هذا التغيير ؛ فإنما يستهدف تحرير الإنسان والمجتمع مما ترسب فيهما ، سواء فى الوجدان أو العقل أو الضمير ، أو فى السلوك الفردى والاجتماعى ، فى محاولة جادة لبناء إنسان متكامل ، لا تنفذ معها مفاهيم ومعتقدات وفلسفات أخرى إلى حياته ، ولا إلى مجتمعه من ناحية الفكر والعقيدة ، والوجدان والتشريع •

والإسلام فى بنائه الإنسان على النحو السابق ، إنما يرتكز على الأسس التـالية :

الأســـاس الأول :

الضبط الاجتماعى للإنسان والمجتمع :

فالإسلام يقوم على أساس ضبط الإنسان فى المجتمع بحيث يبنى فى الإنسان ضبطاً داخلياً ذاتياً ، وضبطاً خارجياً اجتماعياً • والإسلام يبنى فى المسلم ضبطاً داخلياً قوامه القيم والأخلاق الإسلامية ؛ التى تشكل ضميره ووجدانه منسجمين مع عقله وفطرته ، اللذين يهديانه إلى الحلال والحرام ، وموجهين بعقيدته وفكره الإسلامى عن الكون والحياة وطبيعة الإنسان • كما يبنى فيه ضبطاً خارجياً يخضع به لتشريعات الإسلام وحدوده فى كل أمور الحياة الاجتماعية المختلفة •

الأســـاس الثانى :

ويسلم الإسلام بأن الجوانب المادية والمعنوية فى الحياة متكاملة • ولا يمكن أن تعمر الأرض فى غياب إحدى هذه الجوانب ، ولذلك فإن بناءه الإنسان يشمل بناء فكره ومهاراته ، وبناءه لكى يعيش حياة السلم وحياة الحرب ، وبناءه عقائدياً وسلوكياً ؛ وبناءه جسيماً ، وروحياً ، وعقلياً ، ووجدانياً • كل ذلك من أجل أن تنمو الحياة المادية على يديه كما تنمو الحياة الروحية • وتنمو الأعمال وتتقدم ، وتنمو القيم وتزدهر ، وتنمو الدنيا وترتقى ، نشداناً للآخرة وكسباً لها •

الأســـــاس الثالث :

أن هناك مجموعة من القيم التى تشكل حقوق الإنسان وواجباته فى الحياة مثل : الحرية ، والإخاء ، والمساواة ، والعدل الاجتماعى ـ يتحقق بموجبها تكافؤ الفرص فى جميع مجالات الحياة الاجتماعية ، ونظمها المختلفة. وتقيم مبادىء الحرية والإخاء والمساواة والعدل الاجتماعى على أســـاس الإمكانات البشرية والمواهب الإنسانية . وهو بهذا يقضى على مفهوم الطبقية بالمعنى الاجتماعى ، وإن كان يبقى على مفهوم الغنى والفقر لكى تختبر قيم الناس فى أثناء ممارساتهم للحياة ، جاعلا حدود التصرف فى المال تحت مظلة مفهوم « أن المال لله ، وأن الإنسان مُستخلَف فيه » . ومن ثمَّ فالإنسان فى اختبار دائم ، ودائب . وهو فى ذلك مدعو ألا يخرج فى التصرف فى ماله الخاص عن لُبِّ هذه القيم وجوهرها ، وفقاً للروح الإسلامى . والإسلام فى ذلك لا يجعل للغنى فضلاً على الفقير فى المجتمع ، أو فى الآخرة . كما أنه لا يدع الثروات تعبث بالمجتمع أو بالإنسان فى ظل حرية مطلقة ، وإنما يضبط حركتها وإيقاعها وإنفاقها بواسطة تشريعات تحقق العدالة الاجتماعية .

وينظر الإسلام لتنمية الإمكانات البشرية والموهبة الإنسانية على أنها سبيل للثروة ، إذا استخدمها الإنسان فى الأعمال الاقتصادية المختلفة وفقاً لمعاييره ، وقيمه العـــادلة ، وأنها سبيل للترقى الاجتماعى إذا نمَّاها بالعلم والمعرفة والاختراع ، وبالتالى سبيل لبناء المجتمع وتقدمه . وهذا هو معنى الاستخلاف فى الأرض .

ومما لاشك فيه أن التربية فى الإسلام تستوعب هذه المعانى كلها . ومن ثم فهى تستهدفها ، وترسم برامجها فى تربية المجتمع ، وتعليمه على أساسها . فإذا كانت التربية فى مدارسنا قد ابتعـــدت بتنمية المواهب والإمكانات البشرية عن هذا الإطار القيمى الإسلامى ، وعن هذه المفاهيم الإسلامية ، فقد آن الأوان لكى ترد الأمور إلى نصابها ، والحقوق إلى أصحابها ، وأن يعترف للإسلام بحقوقه فى توجيه أبناء الأمة الإسلامية فى ظل مفاهيمه التى نوهنا عنها ، والتى لم ننوه عنها .

الأســـــاس الرابع :

أن الإسلام يبنى بناءه التربوى ــ نظرياً وعملياً ــ على أساس نظرة متكاملة للإنسان والمجتمع والثقافة فيه •

« فهو ينظر إلى الطبيعة البشرية على أنها ذكية مفكرة ، بمعنى وجود إمكانات الذكاء البشرى فيها بالفطرة ، وعلى الإنسان أن ينمى هذا الذكاء بالتفكير • والتفكير عنده ذو أسلوب علمى قائم على التساؤل والنظر • والملاحظة المعنة المدققة للكون الطبيعى ، وللنفس البشرية • وهو بذلك لم يتضمن حكماً من الأحكام يشل حركة التفكير ، أو يلغى العقل الإنسانى ، أو يواجه هذا العقل عجزاً فى فهمه وحكمته وأهدافه فى الحياة الاجتماعية التى يحياها »[1] •

« وما حثه للناس على التفكير وطلب العلم والمعرفة ، والتفكير فى الطبيعة الكونية ، وفى الطبيعة البشرية ــ مما يدفع الناس إلى تنمية الذكاء الإنسانى ، وإلى التقدم العلمى فيه ــ إلا تسليم منه بالإمكانات العقلية فى الإنسان ، وإدراك منه لأسلوب تنميتها »[2] •

« ونظرته للإنسان فى قضية الخير والشر فيه ما يقطع بتلك النظرة المتكاملة للإنسان ، وما يجعل للإرادة البشرية المكانة الأولى فى حياته فهماً ، وإيماناً ، وعملا • وما يجعل الذكاء الإنسانى إذا ما نما نمواً طبيعياً ، دون أغلال ، أو خوف ، فإنه يستطيع أن يدرك الحق من الباطل • فالإسلام لا يرى أن الطبيعة البشرية خيرة بالفطرة أو شريرة بالفطرة ، وإنما فيها إمكانات عقلية ومعايير فطرية تنمو فتدرك الخير والشر ، وفيها بذلك حرية التصرف بالخير أو الشر • فإن فعلت خيراً فلها ثوابها ، وإن فعلت شراً حق عليها

---

(١) و (٢) اقتبست كثيراً من المفاهيم الخاصة بالطبيعة البشرية ، والطبيعة الاجتماعية ، والثقافية من مؤلفنا مسار الفكر التربوى عبر العصور ، ومؤلفنا مقدمة فى التربية مع تكييفها مع بحوث هذا الكتاب .

عقابها . « ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكّاها ، وقد خاب من دسّاها »[1] .

بل إن أسلوب فرض الإسلام لفرائضه بالتدريج ، يؤكد تسليمه ومراعاته لهذه الطبيعة البشرية ، ونموها التدريجى المستمر .

بل إن فى فرضه للفرائض الدينية على المسلمين ما كان ليغلّب جانباً من جوانب الطبيعة البشرية على الأخرى ، وما كان ليفرض ما لا يقدر عليه الإنسان : « لا يكلّف الله نفساً إلا وسعها »[2] .

وفى سياق هذا الأسلوب التربوى فى الإسلام نجد موقفه من الطبيعة الحيوية فى الإنسان ، وطبيعته المفكرة ، وطبيعته الاجتماعية ، وطبيعته الروحية ، وطبيعته النفسية .

ـ فهو يسلم بالطبيعة الحيوية . ولا يقسو عليها بالزهد فى إشباعها . وإنما يقر مطالبها ، وإشباعها بكل ما هو مشروع ، وفقاً لدوافع الإنسان الحيوية ، ووفقاً لعـــوامل الضبط الذاتى ، والضبط الاجتماعى الداخلى والخارجى الذى أشرنا إليه .

ولذلك أحل الزواج ، ونظمه ، وشرّع له . ونظّم النسل ونسبته ، والقوامة فى الأسرة ، ومساواة الجنسين ، والمواريث فى الأسرة ، وما إلى ذلك من الأمور . بانياً هذه التشريعات ، وتلك الجوانب الإشـــباعية ، والقانونية ، والاجتماعية ، والتربوية على أساس فَهم حكيم لمتطلبات هذا الجانب الحيوى فى الإنسان ، دون افتئات على الجوانب الأخرى فيه . بل إنه قد اتخذ من التشريعات لهذا الجانب الحيوى وما يترتب عليه عاملَ ضبطٍ وتكامل مع الجوانب الأخرى فى الإنسان : من عقلية ، ونفسية ، واجتماعية ، وجسمية ، وقوة من القوى التربوية للإنسان والجماعة فى المجتمع ، والمجتمع فى تفاعلاته المختلفة .

---

(١) سورة الشمس ـ الآيات (٧ ـ ١٠) .
(٢) سورة البقرة ـ آية (٢٨٦) .

وانعكس كل ذلك فى منهجه التربوى ، فأوضح كيفية ضبط النفس وشهواتها ، وكيفية إشباع الدافع الجنسى والعقلى والاجتماعى ، والعواطف الإنسانية بطريقة اجتماعية مشروعة تقرها الجماعة ، وتحتفل بها ، ويقرها المنطق البشرى ويسلم بها • وتقرها النفس البشرية وترتاح لها ، وتقرها الدوافع الحيوية وتشبع مع خلالها •

أما الذكاء الإنسانى فإن له مكانة عظمى ، كما أنه يحتل مساحة ضخمة فى مفاهيم الإسلام ، وفى مفاهيم التربية فيه • فلقد خاطب الإسلام الإنسان من خلال ذكائه • ووجد فى تحرير العقل الإنسانى من الخرافات والأوهام ، ومن العقائد الخاطئة والفاسدة ــ أولى مقومات الإنسان المسلم • كما وجد فى حرية الإنسان أول ضمانات التفكير الذاتى الحر الموصل للحقيقة •

ولذلك فإن الإسلام يخاطب عواطف الإنسان ، واجتماعيته ، وجسده من خلال هذه الطبيعة الذكية فى الإنسان •

والإسلام ينظر للذكاء الإنسانى على أنه قادر على اكتشاف الحقيقة ، والوصول إلى معرفة الصواب ، والخطأ ، والحق والباطل ، والخير والشر ، والحلال والحرام « إن الحلال بَيِّن والحرام بَيِّن ••• » •

والعقل بذلك فى ظل الإطار الفكرى الإسلامى ، والروح الإسلامى هو الحَكَم الفَصْل فى قضايا الحياة والفكر • فإذا ما مارس العقل وظائفه متحرراً من الخوف والتعصب ، والخرافة والجمود ، والفاقة ، فيمكن الإنسان أن يرتاح إلى صدق أحكامه ، وأن يطمئن إلى أنه فى مقدوره أن يصل إلى الحقيقة • « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بهــا ••• »[1] •

ــ أما الجانب الاجتماعى فى الإنسان فله مكانته ، واعتباره فى

---

(١) سورة الحج ــ آية (٤٦) .

الإسلام • ولقد شرع له تشريعات تتفق مع منطق العقل الإنسانى ، ومع عوامل الضبط الاجتماعى . والفردى فى المجتمع ، وفى الإنسان • وهو فى تشريعاته لهذا الجانب وفى مخاطبته له ، ومحاسبته له لم يغلّب ذلك الجانب الاجتماعى على فردية الإنسان ، ولم يغلب فردية الإنسان على المجتمع • وأوجد الإسلام بذلك توازناً دقيقاً بين مطالب الفرد فى المجتمع ، ومطالب المجتمع من الفرد ، فكانت تشريعاته لهما فى نطاق هذا التوازن ، بشكل يحقق تكاملهما ، واتساقهما • ولذلك لا نجد فى الإسلام تسخيراً للفرد فى سبيل الكيان الاجتماعى الكلى ، ولا تسخيراً للمجتمع ، واستغلالا له فى سبيل الفرد •

والتشريعات الاجتماعية والاقتصادية فى الإسلام جميعها دليل قوى على مراعاة هذا التوازن ، ونشدان ذلك التكامل • ولذلك فهى قوى مربية عظيمة فى بناء المجتمع وبناء البشر فيه •

فلكل من الفرد ، والمجتمع حق التملك • وعلى كل منهما تقع مسئولية كفالة الآخر : الفرد يكفل المجتمع بالزكاة ، والصدقة ، والضرائب ، وخلافه ؛ والمجتمع يكفل الفرد بالرعاية الاجتماعية من جميع نواحيها ومفاهيمها وأبعادها • ويحاسبه إذا أساء • ويقتطع جزءاً من ملكيته من أجـــل المجموع •• وهكذا مما لا يجل عن الحصر •

كما أعطى الإسلام إنسانية الإنسان وكرامته مكانة أولى • وذلك فى نظام محكم دقيق بحيث لا يطغى الإنسان على الآخرين وحقوقهم • وبحيث يلتزم الإنسان حدوداً محدودة بمعايير عقلية ، وأخلاقية ، وإنسانية • هذه الحدود هى التى يتحدد بها التزام الإنسان إزاء الجماعة ، وإزاء مطالبه وإشباعاته العقلية ، والنفسية ، والاجتماعية ، والفيزيولوجية • وهى التى يتحدد بها مضمون الحرية الإنسانية ونطاق مشروعيتها •

ولذلك فلقد تكاملت التشريعات الإسلامية التى تحدد حدود الحرية الإنسانية وكرامتها مع تلك التى تحدد المصلحة الاجتماعية العامة •

والإسلام بذلك لم يغلّب الفرد على المجتمع ، ولا المجتمع على الفرد . ولم يجعلهما طرفين متناقضين ، وإنما جعلهما قطبين متكاملين لا وجـود لأحدهما بدون الآخر .

ولذلك يمكن القول بأن الإسلام قد أوجد التوازن الدقيق بين مطالب الفرد بجميع أشكالها ، ومطالب المجتمع بجميع اتجاهاتها .

والإسلام فى بنائه الإنسان إنما يبنى فيه مسئوليته الخلقية والعقلية والنفسية والجسمية عن سلوكه . ثم يبنى فيه هذه المسؤلية ــ من جميع تلك الجوانب ــ عن سلوك غيره فى المجتمع . « من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف الإيمان » . صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم . ففى هذا الحـديث لا تقتصر التربية على تربية الإنسان لنفسه وفقاً لمسلمات العقيدة الإسلامية ، وإنما يمتد ذلك إلى أن يصبح مسئولا عن تقويم أى سلوك منحرف لا يتفق مع قواعد هذه التربية ،ومع مُثل وقيم هذا الإسلام ، وهذه إيجابية مع النفس ، وإيجابية مع الغير ، بهما يتلاحم المجتمع ويتكامل ، كما يتلاحم الإنسان فى داخله ويتكامل فى نفسه ، ومع غيره .

ولكل من الفرد ، والمجتمع حق مساءلة الآخر فى التقصير ، ولكل منهما على بعضهما حق المحافظة والبقاء والاستمرار ، وتحقيق أهداف كل منهما .

وإدراك الإسلام طبيعة الإنسان المتعددة : العقلية ، والجسمية ، والروحية ، والاجتماعية ، والنفسية ــ جعلته يقرر ضرورة تنمية جميع هذه الجوانب على حد سواء ، دون تنمية ناحية على حساب النواحى الأخرى على نحو ما أشرنا . إدراكاً منه بأن التنمية المتكاملة للإنسان هى السبيل إلى تكامله مع نفسه ، ومع مجتمعه وأنها السبيل إلى مجتمع تتكامل وتتوازن فيه جميع النظم الاجتماعية : السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والأسرية ، والترفيهية ، والقضائية ، والحربية ، والدينية . وهذا هو السر فى أن الإسلام قد أولى الجانب المادى فى الإنسان وفى المجتمع عناية لا تقل عن الجانب الروحى .

ولذلك فقد وضع لكل منهما برنامجاً خاصاً لإشباعه وتنميته ، وتكامله مع الآخر فى صورة تبتعد به عن الإفراط ، والتفريط • كما وضع برنامجا للتربية يتحقق بمقتضاه التوازن بين جوانب الإنسان المادية ، والروحية ، وجوانب المجتمع المادية واللامادية •

ففى مجال إشباع الجانب المادى وتنميته فى الإنسان يقول القرآن الكريم : « ولا تنس نصيبك من الدنيا »(١) ••• « خلق لكم ما فى الأرض جميعاً »(٢) ••• « قُلْ مَن حرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة •• »(٣) •

وحفاظاً على الجانب المادى فى الإنسان وجميع الجوانب الأخرى المكونة له ، ورعاية له فقد حرَّم الإسلام ما يسبب أضراراً لجسمه ، وروحه ، ووجدانه ، وعقله مثل : أكل الدم ولحم الخنزير والميتة ، وشرب الخمر ونحوها • « حُرِّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهِلَّ لغير الله به ، والمنخنقة ، والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبع إلا ما ذكيتم •• »(٤) •• « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه •• »(٥) •

وفى مجال اهتمامه بالجانب الروحى فقـــد أفرد له جانباً هاماً من تشريعاته وعقائده وفرائضه • وفى هذا يقول القرآن الكريم : « اخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى »(٦) • والنعلان هما الجسم والنفس عند بعض مفسرى القرآن الكريم • « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله »(٧) •

---

(١) سورة القصص ــ آية (٧٧) .
(٢) سورة البقرة ــ آية (٢٩) .
(٣) سورة الأعراف ــ آية (٣٢) .
(٤) سورة المائدة ــ آية (٣) .
(٥) سورة المائدة ــ آية (٩٠) .
(٦) سورة طه ــ آية (١٢) .
(٧) سورة البقرة ــ آية (٢٠٧) .

وهو فى ذلك يرسم برنامجاً للتربية الروحية التى تتطهر بها النفس • ويقمع بها الإنسان شهوات الجسـد • وهذه التربية تتمثل فى الفرائض الإسلامية التى تبدأ بأركان الإسلام الخمس ، وتستمر ببقية الفرائض •

وفى مجال التوازن بين الجانبين : المادى ، والروحى ، يذكر فى الأثر الطيب « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » •

إن إدراك الإسلام لتكامل الطبيعة البشرية كانت وراء التشريعات والمبادىء التربوية التى تقرر وتؤكد على تنمية جميع جوانب الشخصية الإنسانية مادية وروحية ــ على حد سواء ــ دون تنمية ناحية منها على حساب النواحى الأخرى • كما يقرر أن أى نقص فى تنمية أحد هذين الجانبين يحول دون تكامل الشخصية ونموها نمواً سوياً ناضجا[1] • كما كانت وراء التشريعات التى حققت التكامل والشمول الاجتماعى لجميع جوانب المجتمع •

وخلاصة القول : إن الإسلام ــ بمفاهيمه ، ومبادئه ، وتشريعاته ، وفرائضه ــ يبنى الإنسان ويبنى المجتمع بحيث لا ينفصل الإنسان عن مجتمعه ، ولا يتمزق من داخله • وإنما يتكامل الإنسان مع مجتمعه ، بحيث يكوّنان كُلاً واحداً ويصبح الفرد والمجتمع شيئاً واحداً : الواحد هو الكل بما يبنى فيه من إيثار ، وتكافل اجتماعى ، وإخاء إنسانى ، وتماسك وجدانى مع أهله ، ومجتمعه • والكل فى واحد بما يكفله هذا الكل للإنسان من حياة سعيدة ، ومن كرامة إنسانية ، ومن حرية بشرية ، ومن إرادة حرة ، ومن تكافل يضمن حقوقه فى الحياة الإنسانية الكريمة •

ويعيش الإنسان والمجتمع بهذا التكامل فى صحة نفسية تتلاشى فى إطارها أمراض النفس ، وأمراض المجتمع •

---

(١) محمود سلطان وآخرون ، مسار الفكر التربوى عبر العصور ، الطبعة الثانية ، الكويت ١٩٧٧ ، ص ٦٦ .

فالإسلام يبنى فى الإنسان الضبط الذاتى ، والضبط الاجتماعى . وكلا النوعين من الضبط وجه لعملية « اجتماعية » « نفسية » « عقلية » « جسمية » واحـــدة .

ويبنى فى الإنسان مفاهيمه المتسقة مع مفاهيم غيره فى المجتمع فى ظل الإطار العام للفكر الإسلامى ، وبذلك يتكون تماسك اجتماعى بين الناس فى المجتمع .

ويبنى فى الإنسان « سلوكه » ، وهو محصلة مجموعة القوى التى تكون الشخصية البشرية ، كما أنه يتجسد فى عادات ، وقيم ، وأعراف ، وتقاليد ، وتنظيم تنتظم به النظم الاجتماعية المختلفة التى تكوّن المجتمع الإسلامى .

ويعنى ذلك أن الإسلام يبنى التكامل فى الشخصية البشرية ، ويحقق التكامل فى ثقافة المجتمع ، ويحقق التكامل بين الإنسان ، ومجتمعه .

وهذا التكامل سواء فى داخل الفرد أو بين الفرد والمجتمع يحدد خاصية رئيسية من خصائص التربية فى الإسلام . كما يحدد أبعادها ، واتجاهاتها ومساراتها ، وبرامجها وأهدافها .

كما أن الإسلام ينطلق من مفهوم متكامل للثقافة بالمعنى الاجتماعى والأنثروبولوجى لها . وإذ ينظر الإسلام هذه النظرة إلى الثقافة ، فإنما يؤكد على العمل بجميع معانيه ، بقدر تأكيده على الفكر بجميع معانيه أيضاً . ويؤكد على الحرب المشروعة التى تستند إلى الحق ، بقدر حبه للسلام المؤسس على العدل . ويزاوج بين الأخلاق بمفهومها النظرى ، والأخلاق بجانبها السلوكى . ويبنى نفسه على علاقات اجتماعية ذات مضامين إنسانية قائمة على الحب ، والمودة ، والإخاء ، والمساواة ، والحرية ، والتعاطف ، والتآزر ، والتعاون ، والعمل الجماعى قدر اهتمامه بالطقوس الدينية . ويؤكد على الاهتمام بالصحة والمحافظة عليها ورعايتها . وعلى الاهتمام بالجسم وتنميته ، وتنمية وظائف أعضائه ومهاراته ، قدر اهتمامه بالتنمية العقلية والوجدانية والروحية .

فمفهوم العمل ــ على سبيل المثال لا الحصر ــ لهذه المزاوجة بين الجوانب المختلفة لعناصر الثقافة مفهوم واضح ، ابتداءً من حوافز « العمل » واستمراراً بإتقانه وإجادته ، وانتهاءً بعائده وثمرته .

كما تتكامل فى ظله القيم المادية وغير المادية . ويقرر أن التأكيد على الجانب المادى على حساب الجانب الروحى فى المجتمع وثقافته يؤدى إلى أن يسير المجتمع والإنسان فيه فى مسارات مادية مظلمة ، قد تودى بحياة المجتمع وقيمه وأخلاقياته . كما أن التأكيد على الجانب الروحى على حساب الجانب المادى فى المجتمع يؤدى إلى رهبنة تفتقر بها الحياة ، وتظلم وتعتم كظلام وقتامة العصور الوسطى المسيحية . فحينما أغرقت العصور الوسطى المسيحية فى طلاق « الحياة الدنيا » نشداناً للآخرة فإن الحياة كلها قد أصابها العقم الفكرى والحضارى . وحينما أغرقت أوربا فى العصور الحديثة فى التماسك بالحياة الدنيا المادية تاركة الآخرة ــ كرد فعل للعصور الوسطى ــ فإن النزعة المادية أصبحت هى الهدف الأساسى من الحياة عندها . وخسر الإنسان بسبب ذلك كثيراً من مكوناته الأساسية ، وطاقاته الخيرة . فساد الحياة قلق واضطراب نفسى لا مثيل له .

ولكن الإسلام قد وفق بين هذين الجانبين توفيقاً منسجماً . وظهر هذا التوفيق والتكامل بينهما فى تشريعاته العقائدية ، والمجتمعية ، والأسرية ، والأخروية . وقد أشرنا إلى ذلك فى كثير من المواضع السابقة .

ومن خلال هذه النظرة المتكاملة للطبيعة البشرية وللمجتمع وللثقافة كان منهجه التربوى ، وأساليبه فى التعليم والتنشئة ، وأهدافه فى بناء البشر ، وبناء مجتمعهم .

ولذلك انطلق الإسلام وانطلقت التربية فيه ومفاهيمها من مسلمات التوحيد ، ليتحرر العقل من أوثانٍ حجبت عنه رؤية الحقيقة ، وليتحرر الإنسان من عبوديته للبشر ، ومن عبوديته لغير خالقه . والإنسان بهذا يتحرر من الكبت والخوف ، والإرهاب الفكرى والاجتماعى ، والتعصب بجميع مظاهره وأسسه ، ومن الخرافة بجميع أشكالها ، ونزواتها .

فحينما يؤمن الإنسان بخالقه ، ويتعرف عليه ويسلم أمره له ، ويدرك قدرته ، وهيمنته على الحياة والكون الطبيعى ، وما وراء الكون الطبيعى — فإنه لا يخاف إلا خالقه ، وبذلك يحل الخوف من الخالق محل الخوف من المخلوقات • ويتكون فى الإنسان أول أسس ومبادىء الضبط الداخلى فى الإنسان ، وفى المجتمع • ويتم هذا الضبط الذاتى بتربية ذاتية هى أقوى ما يواجه الإنسان من معاناة • ولذلك يسميها الرسول الجهاد الأكبر (جهاد النفس) • وبجهاد النفس يحل الإنسان إلى ضبط ذاتى للفعل البشرى ، فتتكون أخلاقه وفقاً لمعايير عقلية ، ونفسية ، واجتماعية ، وجسمية فى الطبيعة البشرية ، حافظ عليها الإسلام وأوضح حدودها ، ومضامينها ، وسن تشريعاته وفرائضه بانياً إيّاها ، ومُقنناً ومراعياً لها ، ومحافظاً عليها •

وفرائض الإسلام تمثل هذا الجهاد الأكبر — جهاد النفس — لأنها وإن كانت فى مستوى مقدرة البشر فإنها تحتاج من الإنسان أخذ النفس بعدة أمور يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ — الإيمان : وهو الاقتناع العقلى ، والتقبل النفسى لحكمة هذه الفروض ، وما وراءه من عقيدة تتضمن التوحيد ، وشروطه ، ومتطلباته •

٢ — العبادة : حيث يتطلب كثير من هذه الفروض عادات موقوتة ، تتطلب من الإنسان نظاماً دقيقاً محدداً • وتتطلب من المجتمع أن ينظم نفسه وفقاً لها ، ولمواقيتها •

٣ — الإيثار : ويتضمن إيثار هذه الفرائض على مصالح الفرد الخاصة ، وارتباطاته الدنيوية مهما كانت مغرياتها بالنسبة له : « يأيها الذين آمنوا إذا نُودِى للصلاة من يوم الجمعة فاسْعَوْا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ••• »[1] « إن الله لا يبارك فى عمل ينهى عن الصلاة » •

٤ — التضحية : وذلك حينما يضحى الإنسان بأغلى ما يملك — وهى

---

(١) سورة الجمعة — آية (٩) .

حياته ــ فى سبيل العقيدة ، أو الشرف ، أو الوطن • وتظهر واضحة فى عقيدة الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله ••

٥ ــ حب الله وابتغاء مرضاته •

٦ ــ حب الجنة •

٧ ــ الامتناع عن المعاصى والنواهى واتباع ما حث عليه الإسلام •

من هذا نرى أن فرائض الإسلام تمثل برنامجاً تربوياً دقيقاً وعميقاً لبناء الإنسان المسلم بكل صفاته ، وخصائصه ، وروحه • فهى تبنى فيه الروح الإسلامى ، وتطهر النفس البشرية ، وتبنى البدن الإنسانى • وجميع مقومات هذا البناء الإنسانى يرتبط بعضها ببعض ارتباطاً تكاملياً ، بحيث تؤدى فى النهاية إلى وجود الصيغة البشرية الرائعة •• وهى الإنســـان المســـلم •

من استعراضنا السابق يتبين لنا أن التربية فى الإسلام ذات مفهوم شامل متكامل ، بحيث تتضاءل أمامه أكثر المفاهيم التربوية شمولا ، واتساعاً ، وتكاملا فى مجال الاجتهاد البشرى فى الربع الأخير من القرن العشرين • فهى تستهدف الحفاظ على حرية الإنسان ، وتنميتها فى ظل التوحيد • وهى تحرص على الحفاظ على فطرة الإنسان التى فطره الله عليها ، وتنمية القدرات العقلية ، والاستعدادات والميول الفطرية فى ظل هذه الحرية • وهى تحرص على بناء النفس ، وحمايتها من الفجور وتحقيق الطمأنينة لها ، وخلوها من القلق ، والاضطراب فى ظل الإيمان ، وتسليم الإنسان أمره لله خالقه بعد بذل أقصى جهد يستطيعه • وهى تحرص على بناء الخلق الإنسانى والضمير والوجدان البشرى فى ظل التجرد والتربية الروحية ، وهى تحرص على بناء الجسم الإنسانى ، والصحة فى ظل العقيدة ، والجهاد ، والتمتع بنعيم الدنيا • « ولا تنس نصيبك من الدنيا » • « إن لبدنك عليك حقاً » • « قل من حرّم زينة الله والطيبات من الرزق •• » • « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله ، وعدوكم »[1] •

---

(١) محمود سلطان وآخرون ، مسار الفكر التربوى عبر العصور ، الكويت ، الطبعة الثانية ، ص ٦٨ •

« وهى تبنى كل ذلك فى الإنسان بمنهج متكامل فريد ، شامل ، بسيط ، لم تفطن لمثل قدره ، وشموخه ، وبساطة تنفيذه الفلسفات التربوية المعاصرة ، ولا التطبيقات التربوية بعد . وليس بإمكانها أن تصل إليه إذا ما سارت فى خطها الحالى فى بعدها عن التربية الروحية ، وفى موقفها من المعرفة » .

وبعد أن تستهدف بناء الذات البشرية على النحو الذى أشرنا إليه فإنها تحرص على بناء المجتمع ككل ، وهى وإن كانت تبنى فى الإنسان مسئوليته الخلقية والعقلية ، والنفسية والجسمية عن سلوكه ، فإنها تحرص فى نفس الوقت أن تكون هذه المسئولية فردية ــ اجتماعية . فالإنسان بجانب تقويمه ، وتربيته لذاته فيما يسميه رسول الإسلام « الجهاد الأكبر ــ جهاد النفس » فإنه يبنى فى الإنسان مسئوليته عن سلوك غيره فى المجتمع . « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » . صدق رسول الله . ففى هذا الحديث لا تستهدف التربية الإسلامية تربية الإنسان لنفسه ، ومسئوليته عنها وفقاً لمسلمات العقيدة الواضحة فقط ، وإنما تشتمل أهداف التربية الإسلامية مسئولية المسلم عن تقويم أى سلوك منحرف ، لا يتفق مع قواعد هذه التربية ، ومع مُثل وقيم الإسلام . وهذا دليل واضح على الإيجابية ، والحساسية الاجتماعية مع النفس ، ومع « الغير » فى المجتمع . وبهذا يتلاحم المجتمع ويتكامل ، كما تتلاحم النفس البشرية وتتكامل ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

وقريب من هذا المعنى تلك الدعوة التى تحدد رسالة الإسلام للبشرية . وهى رسالة « التبليغ » تبليغ الرسالة للبشرية جمعاء : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً »[1] .

« كنتم خير أمّة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنــكر »[2] .

---

(١) سورة سبأ ــ آية (٢٨) .
(٢) سورة البقرة ــ آية (١١٠) .

مناهج التربية فى الاســـــلام :

إن مناهج التربية التى تستهدف بناء الإنسان « للمجتمع المسلم » ــ سواء منها التربية الخلقية ، أو التربية النفسية ، أو التربية العقلية ، أو التربية الجسمية ، أو التربية الروحية ــ تستمد من القرآن الكريم ومن أحاديث رسول الإسلام ، وقد تستفيد من الاجتهادات البشرية التى تمت على أيدى التربويين الإسلاميين • والتربويون الإسلاميون هنـــا تبدأ مستوياتهم من الخلفاء الراشدين وتستمر حتى تصل إلى العلماء المسلمين ثم المؤدبين بالمعنى الضيق للتربويين • وقد تستفيد من الاجتهادات البشرية التى تمت على أيدى غير المسلمين إذا لم تصطدم بالإطار الفكرى للإسلام ، واستطاعت أن تنضوى تحته •

ومناهج التربية فى الإسلام ليست مناهج مفصلة ، وإنما هى أطر عامة ، ومفاهيم شاملة لأمور الحياة الدنيا ، والحياة الآخرة • وهى مناهج تستهدف بناء مفاهيم الإنسان عن هاتين الحياتين بمنهج عقلانى تماماً ، يدفع هذا الإنسان إلى النقاش ، والاستفهام ، والاجتهاد فى كل أمور الحياة الدنيا • كما يدفعه إلى ملاحظة الكون الطبيعى ، وانسجامه ، ودقة صنعه • وإلى استنباط النفس البشرية ، وملاحظتها ، والوقوف على أسرارها بالاستعانة بما يقدمه القرآن ، وما تقدمه الأحاديث الشريفة عن هذه النفس • فإن كثيراً من أسرار الطبيعة البشرية ، والنفس الإنسانية لا يعرفها إلا خالقها • وبالتالى فهو يقدم انا كثيراً عنها • وبكثير من التحليل ، والتعمق يدرك الإنسان هذه المعانى التى يقدمها « الرب » عن النفس البشرية التى خلقهـــا •

وهذا المنهج العقلانى يدفع الإنسان كذلك إلى العمل لبناء ذاته ، وضمان مستقبله فى الحياتين : الدنيا والآخرة • ويلخص إطار هذا العمل ما جاء فى الأثر من قول مأثور ، وهو : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » •

ووسائل هذا المنهج الإسلامى فى التربية متعددة ومتنوعة ، ومتكاملة

وشاملة لكى تحقق الهدف منها وهو بناء « الإنسان المتكامل » إسلامياً ، وبناء « المجتمع الإسلامى » المتكامل الذى تسيطر عليه مفاهيم الإسلام ، وتعمق فيه اتجاهات الإسلام ، وفكره .

وأول هذه الوسائل هى القراءة والكتابة :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم »[1] .

والقراءة فى الإسلام تبتدىء بقراءة عميقة متدبرة للقرآن الكريم ، ولما فيه من فكر ، حتى يستطيع المسلم والمجتمع المسلم أن يعالجا كل قضايا الحياة الدنيا والآخرة تحت لواء هذا الإطار الإسلامى .

ونزول هذه الآية كأول آية فى القرآن تعنى أن القراءة إطار للبداية ، أو بداية الإطار الفكرى فى الإسلام . ولذلك فقد احتوت معانى تعجز مؤلفات كبيرة ضخمة عن أن تستوعبها .. معانى عن القراءة الدارسة المتمعنة لأمور الحياة كلها ، ومعانى عن العلم عن الرّب والتربية ، ومعانى عن التعليم لما يجهله الإنسان ، وعن التعليم بالقلم كأداة للكتابة والتسجيل ، وعن مهارات الإنسان التى تميز بها عن غيره من المخلوقات حينما يمسك بالقلم ليكتب ، ويتعلّم ، ويدوّن ، كمهارة أساسية للعلم والتعليم والتربية لم يتمتع بها غير الإنسان من المخلوقات . وفيها معانٍ عن الخلق ، ومعرفة أطوار هذا الخلق من خالق عليم بما يخلق . وهذه المعانى تشير إلى معرفة الخالق ، ليس بالخلق من هذه الزاوية فحسب ، ولكن بالخلق من ناحية مكوناته الجيولوجية ، ومكوناته النفسية ، ومكوناته العقلية . خلقه من علَق ثم أعطاه إمكانيات التعليم وتحصيل « المعرفة » .

ومنها ملاحظة الظواهر الطبيعية ودراستها لمعرفة أسرارها وقوانينها التى تحكمها وتفسرها ، تمهيداً لاستثمارها لتعمير الأرض ... « أفلا ينظرون

---

(١) سورة العلق ــ الآيات (١ ــ ٥) .

إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فُروج »[١] .

ومنها ملاحظة الظواهر النفسية ، ودراستها ، وتحليلها تمهيداً لمعرفة النفس البشرية ، وأسرار خلقها ودوافعها ، وفطرتها ومطالبها ، وكيفية إشباعها فى ظل قيم الإسلام . « وفى أنفسكم أفلا تبصرون »[٢] .

ومنها اللغة العربية القرآنية ، ومنطقها « إنا أنزلناه قرآناً عربياً »[٣] ، والقرآن نفسه بما يتضمنه من أسلوب ، وتقنين لقواعد اللغة ، وتبيان لبلاغة ليس لها فى التعبير اللغوى فى اللغات كلها مثيل ، ورسم لصور فنية ليس لها فى التصوير الفنى فى الإبداعات الفنية نظير ، وتصوير لمشاهد حسية ليس للغة من لغات العالم القديم والحديث أن يرقى إليها ، أو حتى مجرد الجرأة على الاقتراب منها . وفيها من المضامين العقلية التى عبرت عنها مما شمل الحياة الدنيا ، والحياة التى بعد الدنيا بأسلوب راق ، رائع ، مذهل ، معجـــز .

« والتربويون أكثر من غيرهم معرفة بقيمة اللغة تربوياً ، وبقيمتها المنطقية فى بناء المفاهيم واتساق التفكير ، والتعبير عن الخبرة ونتائجها من معرفة ، واتجاهات ومهارات ، ومفاهيم وقيم . أى بناء الشخصية بناءً متكاملاً متوازناً متزناً . ولغة الإسلام هى اللغة العربية أفضل اللغات ، وأعمقها على وجه الإطلاق » .

ومنها التربية الجسمية والصحية والعسكرية . وتلخص هذه الوسيلة مجموعة من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، نذكر منها :

« إن لبدنك عليك حقا » . « ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه » « حسب ابن آدم لُقيمات يُقِمْن صلبه . فإن كان لا محالة فاعل ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لهوائه » . « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم »[٤] .

---

(١) سورة ق ــ آية (٦) .
(٢) سورة الذاريات ــ آية (٢١) .
(٣) سورة يوسف ــ آية (٢) .
(٤) سورة الأنفال ــ آية (٦٠) .

ومنها تربية « المسلم » على العزة والكرامة . وفى هذا تشير الآية الكريمة . « ولله العزة ، ولرسوله ، وللمؤمنين »[١] ؛ كما تشير إلى ذلك آية أخرى هى :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر »[٢] .

ومنها تنشئة الإنسان على قيم الإسلام الروحية . وأركان الإسلام الخمس هى الوسائل الأساسية لبناء هذا الإنسان المسلم . ثم يتدرج الإسلام ، أو بمعنى أصح تتدرج التربية الإسلامية حتى تصل إلى مراتب عالية من الروحانية ، يخلع فيها الإنسان نفسه وجسده متجرداً منهما تماماً ، غير مشبع لهما إلا فى حدود مطالبهما الأساسية ، وفى هذا يشير القرآن الكريم : « اخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى »[٣] . والنعلان — كما أشرنا — هما النفس والجسد .

ولقد تجسدت مفاهيم التربية فى الإسلام فى أهداف ووسائل عملية تربوية ، ابتدأت بدار ابن أبى الأرقم ، ثم بالمسجد النبوى بالمدينة ، فحلقات العلم ، والدرس فى بيت رسول الإسلام (ص) ، ثم فى حلقات التربية العسكرية والفروسية ، ثم فى ساحات الشورى ، واتخاذ القرارات ، والحكم فى العهد النبوى الشريف ، وفى عهد الخلفاء الراشدين ، ثم فى مساجد أخرى أولها بيت الله الحرام ، وثانيها المسجد النبوى الشريف ، وثالثها المسجد الأقصى ، وتلتها مساجد أنشئت لنشر تعاليم هذه التربية ، وبناء البشر والمجتمعات فى إطارها . ثم أنشئت إلى جوار المساجد مدارس نظامية ألحقت بالمساجد ، ثم تطورت إلى مراحل تعليمية إلى أن وصلت إلى جامعات مثل جامعة الأزهر ، وجامعة الزيتونة .

---

(١) سورة « المنافقون » — آية (٧) .
(٢) سورة آل عمران — آية (١١٠) .
(٣) سورة طه — آية (١٢) .

وكما أثرت هذه التربية فى بناء مجتمع الأمة الإسلامية ، وقامت على إرساء دعائمه فإنها أثّرت فى العالم ومفاهيمه فيما بعد • ومازالت ، وستظل تؤثر إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها •

وسوف نناقش بعض القضايا التربوية الإسلامية آملين أن نوفق فى الإشارة إليها بالقدر الذى يتكافأ مع مكانة الإسلام الذى عالجها •